حسُّ العرب بالألفاظ

د. مباركة خمقاني
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص:

حاولت من خلال هذا المقال إبراز عناية العرب بالألفاظ، الذي لا يقل عناية عن اهتمامهم بالمعنى، ، حيث ركزوا على فصاحة اللفظ ، وحسن استخدامه في الشعر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي،ماذا يقدم اللفظ للمعنى، كيف يحسن في هذا المكان، ولا يحسن في آخر،مع ذكر الأسباب، وتعليلات النقاد.

Résumé :

Nous avons essayé à travers cet article de mettre en évidence l'attention des arabes au lexique, moins que le sens, car ils ont concentré sur l'éloquence de mot et le bon usage dans l'ancienne poésie de l'ère préislamique à l'époque abbasside, ce que présente le mot au sens, et comment améliorer cet état et ce qu'il n'améliore pas enfin. Cela est fait avec l'explicitation des raisons et justification des critiques.

إن اللغة أهم وسيلة لدى الإنسان للتعبير عن الفكرة التي في ذهنه، فإن هذه الفكرة هي المعنى المراد توصيله أو التعبير عنه، وشغل المعنى منذ القديم المفكرين والفلاسفة من الهنود واليونان والعرب، وهو الآن يجذب إليه كل المهتمين بدراسة الأحداث اللغوية.

أوّلا- عناية العرب باللفظ:

نرى كثيرا من اللغويين العرب يربطون في مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية، يقول إبراهيم أنيس:«ولعل السِّرَّ في هذا الاتجاه هو اعتزازهم بتلك الألفاظ العربية وإعجابهم بها، وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخباياها»[1].

وعقد ابن جني في كتابه الخصائص أربعة أبواب يكشف فيها عن الصلة الخفية بين الألفاظ ومعانيها وهي على الترتيب[2]:"تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني" و"الاشتقاق الأكبر" و"تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و"إمساس الألفاظ أشباه المعاني".

ونحن في بحثنا لا نتحدث عن الصلة بين اللفظ والمعنى أو الفصل بينهما، وإنّما نحاول أن نحدد اهتمام العرب بكل منهما خاصة من حيث الفصاحة والقَبول، وسنركز على اللفظ، وذلك لأن الألفاظ تتفاوت حسنا وقبحا، تبعا لمواقعها واستخدامها الاستخدام الأمثل.

ولذا فإن اللفظ قد يكون صحيحا، خاليا من العيوب التي يجدها كل من المتكلم والسامع، كما قد يكون مريضا معتلا يحتاج لجهد عضلي زائد في نطقه مما قد يؤدي إلى التعلثم والخلط عند النطق به كما قد لا يأنس إليه السامع، مما يكون قد ألمّ به من أمراض تعيب اللفظ المفرد، أو الألفاظ المركبة[3].

واعتني علماء العربية بدارسة هذه الأمور، وأفاضوا فيها لما لهذه القضايا من أثر في تركيب الكلام وتناسق موسيقاه، وذلك لأن للكلمة إيقاعا مؤثرا في موقعها في النص، وفي دلالتها اللغوية والإيحائية، وذلك ما يسمونه بالجرس

اللفظي[4]. ومن هنا كان حرصهم على فصاحة اللفظة المفردة، والألفاظ المركبة نطقا وسمعا، خاصة من حيث صحة مخارج الحروف.

لذلك أجمع البلاغيون على أن التنافر هو ما يعتري الكلمة المفردة، أو الكلام المركب من ثقل يتعسر معه النطق بها، مما يقتضي جهدا عضليا زائدا يُكِدُّ اللسانَ الذي هو الآلة الأخيرة المستخدمة في النطق في الجهاز النطقي[5]. قال ابن منقذ: « اعلم أن التثقيل والتخفيف هو كقول أبي نواس:

دعْ عنكَ لوْمِي فإنّ اللَّومَ إغراء وَدَاوِني بِالتِي كَانتْ هِي الدَّاء

أخذه أبو تمام فأتى به في ألفاظ ثقيلة فقال :

قِدْك اتَّئبْ، أرْبيْتَ في الغُلواء كم تَعْذِلُونَ، وأنتم سحِرائي*

وكما قال مسلم ابن الوليد:

قَدْ أوْلعتهْ بِطُولِ الهجْرِ غُرَّته لَوْ كَانَ يَعْرِفُ طول الهجْرِ مَا هَجَرا

أخذه أبو تمام فقال:

كُشِفَ الغِطَاءُ، فَأَخْمِدِي أو أَوْقِدِي لَمْ تكمَدِي فَظَنَنْتُ أنْ لَمْ تَكْمُدِ»[6]

وكان الجاحظ أول البلاغيين الذين نبهوا إلى هذه القضية، حيث تناوله في كتابه البيان والتبيين قائلا: « إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كانت بينهما من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة»[7].كما شبه التفرق والتنافر ببعر الكبش.

وحدد ابن سنان الخفاجي بعض المقاييس لفصاحة الكلمة ومنها [8]:

1- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخرج، وعلّة هذا واضحة،كما يقول ابن سنان الخفاجي، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر فالأبيض مع الأسود أحسن منه مع الأصفر، وذلك لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبُعْد ما بينه وبين الأسود. ومثال ذلك قول المتنبي [9]:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللّيلِ يَشْفَعُ لِي وأَنْثَنِي وبيَاضُ الصبْح يُغْرِي بِي

2- أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية مع غيرها، وأن تتساويا في التأليف من الحروف المتباعدة،فلا يخفى على السامع أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا. ومثال ذلك قول المتنبي[10]:

إِذَا سَارَتِ الأحْدَاجُ فوقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانِياتِ وَرَنْدَهُ

إن " تفاوح " كلمة في غاية من الحسن وقد قيل إن أبا الطيب أول من نطق بها على هذا المثال[11]. وقد جاء في شرح الديوان قول ابن جني قال لي المتنبي: لَمَّا قلت هذه القصيدة وقلت: تفاوح. أخذ شعراء مصر هذه اللفظة فتداولوها بينهم. قال ابن جني وهي لفظة فصيحة مستحسنة.[12]

ومثال ما يكره قول أبي الطيب:[13]

مُبَارِكُ الاسْمِ أغرُّ اللَّقبْ   كَرِيمُ الجِرِشّى شريفُ النَّسَبْ

يقول شارح الديوان : « وكلمة الجرشي من قبيح ألفاظ المتنبي ».[14]
3 – أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية وهذا كقول أبي تمام:[15]

بِنَدَاكَ يُوسَى كُلُّ جُرْحٍ يَعْتَلِي   رَأْبَ الأُسَاةِ بِدَرْدَ بِيسٍ قِنْطَرِ

كقوله أيضا[16]:

صَهْصَلِقٌ في الصَّهِيلِ تَحْسِبُه   أُشْرِجَ حُلْقُومُه عَلَى جَرَسِ*

فكلمة صهصلق ليست وعرة ولا ثقيلة على السمع لكنها وحشة غير أن ابن سنان يستهجن الكلمة لذاتها بدون مراعاة السياق.[17]
من الكلمات" الوعرة "التي كان لها موقعها من السياق كلمة "ضَمَزْى ودِلَمز "
في قول أبي العلاء :[18]

ألم تَرَنِي عَرفت وعيد رب   أقل تكلمي وأطال ضَمَزِي**
ومن لي أن أفرّ على طِمَرٍ   من الدنيا الخبيئة أودِ لَمَزْ***

قال صابر عبد الدايم:«ولما كان أبو العلاء يريد أن يصور ثقلا واقعا عليه أتى بكلمة "ضمزى" فالكلمة هنا كأنها صخر تضغط عليه، وتكاد تسحقه وهي من ناحية الصوت والجو العام والسكوت، ثم إنه ليس هناك في هذه القافية الشحيحة ما يدل على ما يريد ويحس غير هذه اللفظة أو"الصخرة" التي جاءت في موقعها »[19].

كما قد يكون التنافر خفيفا. والثقل فيه ناتج من اجتماع كلمة مع كلمة أخرى قريبة
منها خاصة من حيث مخارج الحروف كقول أبي تمام [20]:

كَرِيمٌ متى أَمَدَحْهُ أَمدحْه والورى   مَعِي ومَتَى ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فتكرار أمدحه مرتين متتاليتين، أدى إلى الثقل والعسر في النطق وذلك لاحتوائهما على الهاء والحاء المتقاربين في المخرج.
وكقوله[21]:

يومٌ أفاضَ جَوًى أغاضَ تَعَزِّيًا   خاضَ الهَوى بَحْرِيْ حِجَاهُ المُزْبِدِ

وقال عنه الآمدي: وهذا غاية ما يكون من التعقيد والاستكراه[22] . وسببه الرغبة الجامحة عند أبي تمام في استخدام الجناس القائم على الوزن والصوت أي على الصيغة والأصوات بما فيها الحركات أيضا، مما أدى إلى نوع من الثقل في النطق لاتحاد مخرج الضاد في أفاض وأغاض والواو في هوى وجوى[23] ومن ثَمَّ اشترطوا أنهُ لكي تكون الكلمة فصيحة لابد من تناسق مخارج حروفها وفق أساس ذوقي وعضوي، وليس بالقرب أو البعد مطلقا.
فمن اللفظ المتنافر المخل بكمال الفصاحة" النقاخ "* في قول بشار[24]:

وإذْ نَلْتَقِي خَلْفَ العُيونِ كَأَنَّنَا   سُلَافُ عُقَارِ بِالنُّقَاخِ مَشُوبُ

كما قد يكون تكرار الحروف أحيانا دليلا على التنافر وهذا ما ذكره ابن منقذ في :« قول المتنبي:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا   قلاقل عيس كلهن قلاقل

أو كقول مسلم بن الوليد:

سلت، وسلت ثم سل سليلها   فأتى سليل سليلها مسلولا»[25] .

فقال بعض البلغاء:«وإن مسلما سلسل، وإن المتنبي قلقل»[26].

فقد تكرر في الأول حرف القاف، وهو حرف لهوي انفجاري مهموس، وفي الثاني تكرر حرف السين وهو من الحروف اللهوية الاحتكاكية المهموسة أيضا، ولهذا يكون تكرار الحروف كتكرار الكلمات يذهب بشطر الفصاحة[27]. لأن الفصاحة تقتضي نوعا من التناسق الصوتي في ترتيب الحروف من حيث مخارجها، فإذا انعدم هذا التناسق كأن كرر الصوت أكثر من مرة أو كررت الكلمة أكثر من مرة حدث الثقل وهذا كقول أبي تمام [28]:

خَانَ الصفَاءَ أَخٌ خان الزمانُ أخًا   عنه فلمْ يتخوّن جِسْمَهُ الكمَدُ

فيرى الآمدي أن المعنى أفسده اللفظ لذلك لا تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة لذلك يقول:« فأنظر إلى كثرة ألفاظ هذا البيت، وهي سبع كلمات آخرها "عنه" ما أشد تشبث بعضها ببعض، وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ في البيت من أجل ما يشبهها، وهي قوله:"خان "و "خان" و "يتخون" وقوله "أخَ"و"أخَا"»[29].

ومثله أيضا قوله [30]:

وإنْ يُجَيْرِيَّةٌ بَانَتْ جَأَرْتُ لَهَا   إلى ذُرَى جَلَدِي فاستُوْهِلَ الجَلَدُ

فنلاحظ أنه كرر حرف الجيم أربع مرات فقال الآمدي :« هذه الألفاظ وإن كانت معروفة مستعملة فإنها إذا اجتمعت استقبحت وثقلت»[31].

كما يمكن أن نضيف إلى ذلك طول وكثرة الحروف كقول المتنبي:[32]

إنَّ الكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنْهُمُ   مِثْلَ القُلُوبِ بِلاَ سُوَيدَاواتِهَا

فلطول وكثرة حروف: "سويداواتها" عيبت وذلك لثقل الناشئ على هذا الطول، وعدم الجدوى منه حيث أضاف قبحاً ولم يضف جمالا[33].

ومن خلال كل الشواهد السابقة تبدو عناية علماء العربية بصفاء ونقاء اللفظ، فقد كدحوا طويلا في سبيل المعاني وحسن صياغتها، فانكبوا على ينابيع اللغة العربية العذبة ينهلون منها أساليبهم، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر قصة غضب بشار على تلميذه سلم الخاسر حين صاغ بيتا له صياغة جديدة أجمل من صياغته وهذا ما أورده صاحب الأغاني[34].

فقد قال بشار:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظفَرْ بِحَاجَتِهِ   وفَازَ بالطيِّبَاتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

فصاغه سلم صياغة جديدة أعذب وأرشق فقال:

مَنْ رَاقَبَ الناس مَاتَ غمًّا   وفاز باللَّذَةِ الجَسُوُر

فغضب بشار على سلم غضبا شديدًا وقال: « أفتأْخُذُ معانِيَّ التي قد عُنيتُ بها وتعبتُ في اســتنباطها، فتكســوها ألفاظًا أخفَّ من ألفاظي حتى يروى ما تقول، ويذهب شِعْرى! لاَ أرض عنك أبدا»[35].

وفي الأخير نجد أن العرب أولوا عناية بالغة بتركيب الكلام العربي خاصة في الشعر الــذي تحــس الأذن مــن خلاله حسن أو سُوء اللفظ، فوجهوا الاهتمام إلى اللفظ والمعنى على حد السواء، وهذا ما جعل النقــاد يفاضــلون بــين الشعراء بإجادتهم للمعاني الألفاظ، وحسن وضعهما في مكانهما المناسب.

---

[1] - دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، 1997م. ص: 64.

[2] - ينظر: الخصائص، ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ-2001م،474/1 –490-499-505 .

[3] - التنافر الصوتي والظواهر السياقية، عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الاشعاع الفنية، مصر، ط1، 1419هـ - 1999م، ص: 7.

[4] - موسيقى الشعر العربي، صابر عبد الدايم، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1413 هـ-1993م، ص:35.

[5] - التنافر الصوتي والظواهر السياقية، عبد الواحد حسن الشيخ ، ص:8.

[*] - قدك: يكفيك، اتئب : الإستحاء، أربيت:زدت، الغلواء، أول الشباب، سجرائي: أحبائي.

[6] - البديع في البديع في نقد الشعر، ابن منقد، تحقيق: عبد آلي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1407هـ-1987م، ص: 292-293.

[7] - البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت650هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت-لبنان، دط، دت،66/1-67 .

[8] - ينظر: سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد سعيد ت 466هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1402هـ-1982م، ص: 64-89.

[9] - شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، دط، 1400هـ-1980م،290/1.

[10] - نفسه، 120/2.

[11] - موسيقي الشعر العربي، صابر عبد الدايم ، ص: 40 .

[12] - شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، 121/2.

[13] - نفسه، 227/1.

[14] - نفسه والصفحة.

[15] - شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ط1، حزيران، 1981م، ص: 880.

[16] - نفسه، ص: 310.

[*] - صهصلق: الشديد الصوت، أشرج : وصل.

[17] - ينظر: موسيقي الشعر العربي، صابر عبد الدائم، ص: 40.

[18] - نفسه، ص : 42.

[**] - الضمز: السكوت.

[***] - الدلمز: القوي الشديد ،أراد به الجواد.

[19] - نفسه والصفحة.

[20] - شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي ، ص :239.

[21] - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر ت370هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت، 296/1.

[22] - نفسه، والصفحة.

[23] - التنافر الصوتي والظواهر السياقية، عبد الواحد حسن الشيخ، ص: 39.

[*] - النقاخ (بضم النون وبخاء معجمة): الماء البارد.

[24] - الديوان، بشار، شرح وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، د ط، 1976م، 212/1.

[25] - البديع في البديع، ابن منقذ، ص: 212.

[26] - ينظر: نفسه، ص:213.

[27] - التنافر الصوتي والظواهر السياقية عبد الواحد حسن الشيخ، ص: 16.

[28] - الموازنة، الآمدي، 294/1.

[29] - نفسه، والصفحة.

[30] - نفسه،301/1.

[31] - نفسه والصفحة.

[32] - شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمان البرقوقي، 352/1.

[33] - ينظر: التنافر الصوتي والظواهر السياقية، عبد الواحد حسن الشيخ، ص: 19.

[34] - ينظر: كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط4، 1398هـ_1978م، 194/3.

[35] - ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 194/3.